الفَاطِمِيّونَ فِي مِصر

ترجمة : خاشع المعاضيدي
معاون عميد كلية الآداب
جامعة بغداد

١ ـ التوسع الاقليمي[١] : ـ

بذل القائد الفاطمي جوهر الصقلي جهودا كبيرة لمد نفوذ الفاطميين خارج مصر وخاصة على الاقاليم التي كانت خاضعة للاخشيديين ، كما امتد نفوذهم الى مكة والمدينة في عهد المعز الفاطمي سنة ٣٥٩هـ/٩٧١م . الا أن الامر كان أكثر صعوبة فيما يتعلق ببلاد الشام لان الحاكم الاخشيدي فيها كان حليفا لقرامطة البحرين الذين يساعدهم البويهيون من بغداد ، وكان باستطاعة جعفر بن فلاح المساعد العسكري لجوهر الصقلي أن يحتل دمشق لولا انه قتل في معركة خاضها ضد القائد القرمطي الحسن الاعصم في نهاية سنة ٣٦٠هـ آب سنة ٩٧١م .

وفى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م حاول القرامطة احتلال مصر لكنهم جوبهوا بمقاومة ناجحة من قبل جوهر الصقلي الذي هزمهم ، واستطاع جوهر أن يعيد سيطرته على أجزاء من فلسطين ، لكن الحسن الاعصم عاود الهجوم على القاهرة سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م وذلك في الوقت الذي غادر فيه المعز الفاطمي شمال أفريقيا متوجها الى القاهرة حيث وصلها فى رمضان سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م ، أما سبب انهزام القرامطة هذه المرة فيرجع الى كثرة الاموال التي

---

(١) الترجمة عن مادة « فاطميون » للاستاذ م. كنارد المنشورة فى دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الجديدة ـ سنة ١٩٦٥ المجلد الثاني ص : ٨٥٤ ـ ٨٦٢ .
M. Canard, Eencyclopedia of Islam, Volume II, pp. 854 - 62 (New Edition), 1965.

بذلها الفاطميون لجيش القرمطي الذي ما لبث ان انهارت قواته ، وبذلك استطاع الفاطميون اعادة احتلال دمشق ، لكنها ما لبثت ان سقطت بيد مغامر تركي يدعى الفتكين في الوقت الذي توفي فيه المعز الفاطمي وهو في طريقه لمحاربته .

وقد أفلح الخليفة الجديد (العزيز) في اعادة فتح دمشق سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م الا انه اضطر الى دفع الاموال للقرامطة الذين كانوا بجانب الفتكين وذلك لغرض جلائهم عن دمشق .

كان هدف العزيز الرئيس اقرار سيطرته على فلسطين وسوريا وحلب ، لكن القلاقل الكثيرة والمستمرة هناك حالت دون ذلك ، أثارها المتمردون أمثال الجراح الطائي في فلسطين ، أو من قبل حكام وقواد عسكريين شقوا عصا الطاعة ، وهكذا فقد فشلت جهود العزيز سنة ٣٧٣هـ ، سنة ٣٨٤هـ في السيطرة على المنطقة ، ولم تتعدى سلطته مشارق طرابلس .

ومع ذلك فقد امتدت سيطرة الفاطميين من الاطلنطي الى البحر الاحمر بالاضافة الى الحجاز واليمن (من قبل عبدالله بن قحطان اليعفري سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م) وسوريا والموصل أثناء حكم العقيليين الا ان الفاطميين لم يفلحوا في التوصل الى تفاهم مع حكام بغداد البويهيين رغم اعتناقهم المذهب الشيعي مثلهم .

أما في سوريا فقد استمرت الاضطرابات ضدهم ، وانه من الممكن القول بأنها لم تخضع للسلطان الفاطمي قط ، وفي عهد الحاكم خضعت حلب لسيطرة الفاطميين ، سنة ٤٠٦هـ ، وعين عليها أميرا فاطميا سنة ٤٠٨هـ ، لكنه كان يثور عليهم من وقت لآخر ، أما في فلسطين فقد نجح المفرج بن دغفل الجراحي أن ينصب شريف مكة خليفة ، لكن الحاكم الفاطمي قدم الاموال لبني الجراح فخلعوا شريف مكة وأعادوا ولائهم للفاطميين بمصر .

وقد تعرضت سيطرة الفاطميين على بلاد الشام للخطر في عهد الظاهر وذلك باتفاق تم بين بني الجراح والكلبيين القاطنين فى وسط سوريا وفلسطين ، والكلابيين القاطنين شمال سوريا ، فسقطت حلب بيد صالح بن مرداس الكلابي سنة ٤١٥هـ ، ونظرا لان الكلابيين كانوا كثيري التقلب فى مواقفهم فقد استطاع القائد الفاطمي أنوشتكين الدزبري أن ينتصر في معركة الاقحوان بفلسطين وأن يعيد فتح دمشق ويستعيد حلب من المرداسيين سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م في عهد المستنصر ، وبفضل جهود انو شتكين امتدت سيطرة الفاطميين الى حران وسروج والرقة ، لكنه قتل بتدبير الوزير الفاطمي الجرجرائي وعين مكانه ناصرالدولة الحمداني ، ونتيجة لذلك وقعت حلب مرة اخرى بأيدي المرداسيين سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م ، ورغم المحاولات التي بذلها الفاطميون لاستعادة حلب سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ، وسنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م واستسلامها في سنة ٤٤٩هـ ، ثم خضعت للمرداسيين حتى سنة ٤٥٢هـ ، وخرجت من أيدي الفاطميين نهائيا بعد أن استسلمت لخليفة بغداد والسلطان السلجوقي الب أرسلان سنة ٤٦٢هـ ، ثم عين عليها حاكم سلجوقي اعتباراً من سنة ٤٧٩هـ .

لم تستقر السيادة الفاطمية فى سوريا وفلسطين خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي لكثرة الاضطرابات فيها ، وقد حاول القائد الارمني الاصل بدرالجمالي عبثاً أن يعيد فتح دمشق سنة ٤٥٦هـ وسنة ٤٥٨هـ ، وسنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م أثناء القتال بين المغاربة والعناصر الشرقية من الجيش حيث اشتعلت النيران في الجامع الاموي ، وفى سنة ٤٦٨هـ احتل دمشق قائد سابق هو اتسز التركماني الذى هدد القاهرة سنة ٤٦٩هـ ، وبعد ذلك خضعت دمشق للسلاجقة سنة ٤٧١هـ/١٠٧٩م ، وقد استطاع اتسز أن يستولي على القدس سنة ٤٦٣هـ التي آلت الى سقمان بن ارتق فيما بعد ، ولم تبق بيد الفاطميين من فلسطين سوى عسقلان حتى احتلها الصليبيون

سنة ٥٤٨هـ ، وبعض المدن الساحلية كبيروت وصور وصيدا وعكا ، ولم تنته محاولات بدر الجمالي لاعادة السيطرة على سوريا ودمشق بشيء .

٢ ـ العلاقات مع شمال أفريقيا وصقلية :ـ

منذ عهد الخليفة العزيز بدأت علاقات شمال أفريقيا بالخلافة الفاطمية تضعف ابان ولاية منصور ابن بلوكين (٣٧٣هـ/٩٨٤م ـ ٣٨٦هـ/٩٩٦م) ، أما في عهد الحاكم الفاطمي فقد بدأت الصعوبات تظهر فى برقة وطرابلس عندما اتخذ واليها المعز بن باديس (سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٦م ـ سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) عدة اجراءات عدائية اتجاه الخلافة الفاطمية ، وحدث الانفصال التام سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م عندما نقض الامير الصنهاجي سيادة الفاطميين وحصل على تولية من خليفة بغداد ، ويرجع احتلال أفريقيا من قبل بني هلال الى رغبة الوزير الفاطمي اليازوري في الانتقام ، وقد تمكن تميم بن المعز الفاطمي (سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م ـ سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م) أن يعيد بني هلال بصورة مؤقتة الى طاعة الفاطميين في السنوات الاولى من عهده ، وبنفس الطريقة يؤدي الامير حسن بن علي الطاعة الى الخليفة الفاطمي الآمر (سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م) ويسأله التدخل لايقاف أمير صقلية روجر الثاني عن مهاجمة أفريقيا ، وفى الحقيقة فانه يمكن القول بأن الانفصال (أو وجود الخلاف) استمر أكثر من نصف قرن .

أما صقلية فقد أصبحت مستقلة فعليا عن الخلافة الفاطمية ، كما حدد الولاة الكلبيون أنفسهم بقبول تولية ممثلين من القاهرة رغم وجود الاتصالات بينهم وبين زيري في أفريقيا الذين اعترف لهم أهل صقلية بالسلطة سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م أكثر من اعترافهم بسلطة القاهرة .

وعلى كل حال فان عملتهم في عهد الخليفة الظاهر وكذلك فى عهد خليفته بقيت تحمل اسم الخليفة الفاطمي ، وليس من المستبعد القول بأن

الهجمات التي قام بها الصقليون على السواحل البيزنطية قد حدثت بمساعدة القاهرة لان الامبراطور رومانوس أرگيروس طلب في مفاوضاته مع الخليفة الظاهر سنة ١٠٣٢م عدم مساعدة الفاطميين لصاحب صقلية في حملاته ضد البيزنطيين ، وتعهد من جانبه اتخاذ نفس موقف الحياد هذا ، وفي الواقع فان القاهرة لم تكن تملك أي نفوذ فى صقلية ، ويبدوا أنها فقدت أي اهتمام بها • وكان قبول الغزو النورماندي عملا تكتيكيا ، بينما استمرت الاتصالات مع روجر الثاني بصورة متكررة ودورية ، وجرت مراسلات بهذا الشأن في سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م • وفى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م أرسل الحافظ وفدا الى روجر الثاني نتج عنه معاهدة تجارية سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م ، ومع ذلك ففي سنة ١١٥٣م ، ١١٥٥م ، ١١٦٩م ، ١١٧٤ ، تعرضت تونس ودمياط والاسكندرية الى هجمات بحرية نورماندية •

٣ ـ علاقة الفاطميين بالامبراطورية البيزنطية :ـ

زعم الفاطميون بدعاياتهم عندما كانوا في أفريقيا ان العناية الالهية دعتهم للقضاء على الامويين فى الاندلس والعباسيين في بغداد وأباطرة القسطنطينية في بلادهم ، وكانت الصلات بين الفاطميين بأفريقيا والبيزنطيين مستمرة حيث جرت الغارات بين المعز والبيزنطيين ، واستمرت هذه الصلات عندما انتقلت عاصمة الفاطميين الى مصر حيث استقبل المعز سنة ٣٦٥هـ سفيرا (رسولا) للامبراطور البيزنطي (زمكس) لكن العزيز اصطدم مع البيزنطيين لانهم ساعدوا الحمدانيين ضده عندما أراد الاستيلاء على حلب ، وكانوا سدا قويا بينه وبين احتلالها ورغم ان العزيز لم يفلح فى احتلال حلب رغم محاولاته العديدة ، الا انه حصل سنة ٣٧٧هـ من الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني الذى كانت تهدده ثورة داخلية ، على عقد معاهدة معه تضمنت الغاء القيود التجارية التي فرضتها الامبراطورية البيزنطية ، وان تقام الصلاة للعزيز في جامع استانبول ، لكن العزيز حاول تجهيز قوة كبيرة

لغزو الحدود البيزنطية ، لكنه مات وما زالت الحملة فى بدايتها •

وقد فشل الحاكم الفاطمي هو الآخر فى احتلال حلب واخماد الاضطرابات فى شمال سوريا • وذلك للمساعدة التى يحصل عليها امراء هذه المنطقة من البيزنطيين ، كما عمل البيزنطيون على مساعدة (العلاّقة) سنة ٣٨٧هـ فى صور ضد الفاطميين ، لكنهم هزموا أمام الفاطميين فى شمال سوريا ، وعندما اضطر الامبراطور باسيل الى طلب الصلح تمّ له ذلك سنة ٣٩١هـ حيث عقدت معاهدة صلح بين الجانبين استمرت عشر سنوات ، تمكن خلالها باسيل أن يجهز حملة على شمال سوريا رغم اخفاقه في السيطرة على طرابلس ، وقد يرجع سبب قطع العلاقات التجارية من قبل باسيل ، الى تدمير كنيسة المذبح المقدس بأمر من الحاكم الفاطمي ، وقد تبع ذلك محاولات للمصالحة سنة ٤١٢هـ وذلك قبيل وفاة الحاكم بقليل •

وفى بداية حكم الظاهر سنة ٤١٤ هـ حاولت الاميرة ست الملك استئناف المفاوضات مع البيزنطيين الا انها لم تفلح ، وقد عادت العلاقات سنة ٤٢٣ هـ ، لكنها لم تلبث ان قطعت مرة اخرى بسبب رفض الخليفة الفاطمى عودة الامير حسان بن المفرج الذى كان لاجئا لدى البيزنطيين ، وكان الاتفاق قبل ذلك قد تم على اعادة بناء كنيسة المذبح المقدس •

وفى سنة ٤٢٩هـ عقدت معاهدة سلام بينهما أمدها (٣٠) عاما وذلك فى بداية حكم المستنصر حيث حصل البيزنطيون على موافقة الفاطميين على اعادة بناء المسجد وارسلو المعماريين والاموال لهذا الغرض •

وبعد هذا التاريخ بدأت فترة سلام وصداقة بين الفاطميين والروم ، ورغم ان الروم ساعدوا متمرد في صقلية على الفاطميين ولقبوه سيد أو أمير سنة ١٠٥٣ فانهم قبضوا على رسول المعز بن باديس الزيرى فى حدود دولتهم قادما من بغداد وأرسلوه الى المستنصر الفاطمي ، وكان الزيرى قد اعترف بالسيادة العباسية على بلاده ، وقد جددت المعاهدة سنة ٤٣٩ هـ ،

واقام الامبراطور قسطنطين علاقات ودية مع المستنصر وجهز مصر بالحنطة اثناء المجاعة التى حلت سنة ٤٤٦ هـ بناءا على طلب المستنصر ، لكن وفاة الامبراطور واصرار خليفته الامبراطورة زوتى التى اشترطت لذلك معاهدة عسكرية لمساعدتها ضد السلاجقة أصاب علاقاتهم فتور وبرود ، وتجددت المفاوضات بين الفريقين ، حتى ان الصلاة فى مساجد القسطنطينية اقيمت للسلطان السلجوقي طغرلبك بدلا من الفاطميين ، وقد يرجع ذلك الى وجود العلاقات الودية التى بدأها البيزنطيون مع السلاجقة منذ سنة ٤٤١هـ ، وان ثمة مشروع لاقامة حلف بين السلاجقة والبيزنطيين ضد الفاطميين كان فى طريقه الى ان يتم ، ومع ذلك فان العلاقات الودية بين الفاطميين والبيزنطيين قد تجددت وانها كانت على جانب من الاهمية اثناء حكم قسطنطين واستمرت فى الفترة سنة ١٠٥٧ ـ سنة ١٠٥٩م أثناء حكم كومنيوس •

وقد استمرت العلاقات الودية والسفراء بين الفاطميين والبيزنطين ما دام خطر السلاجقة يهدد الجانبين الفاطمي والبيزنطي ، فقد كانت هناك سفارة فاطمية أثناء حكم روماتوس دايوجينس سنة ٤٦١هـ • وفى سنة ١٠٩٨م أرسل الامبراطور اليكسي كومنيوس رسالة الى الوزير الافضل بعد ان سقطت انطاكية بيد الصليبين ، كما ارسل الامبراطور ذاته سفارة الى الوزير الافضل سنة ١١٠٥ م من اجل الوصول الى اتفاق بشأن فك الاسرى الفرنج ، وقد حافظ كومينوس على العلاقات الودية مع مصر حتى انه طلب سنة ٥٥٣ هـ ١١٥٨ م مساعدة الاسطول الفاطمى ضد صقلية ، وفى نفس العام ارسل الوزير طلائع بن رزيك الى الامبراطور كومينوس اخا الكونت دوق قبرص الذى كان اسيرا عنده ، وبعد ذلك بسنتين اى فى سنة ١١٦٠ عقد مانيوس كومينوس اتفاقا مع أملريك ملك اورشليم للهجوم على مصر ، وقد تم ذلك الهجوم فى السنة التالية الا ان الحملة باءت بالفشل •

٤ ـ علاقة الفاطميين مع العباسيين فى الشرق : ـ

اغرى الشاعر الاندلسي ابن هانىء سيده المعز الفاطمى بدخول بغداد لانه الطريق المعبد الذى يقوده الى خراسان ، وكان المعز قد أبلغ السفير البيزنطى اليه بانه سيلتقى فى الزيارة القادمة فى بغداد ، وقد بذل العزيز جهده لبلوغ هذه الغاية باتباع المراسلات والمفاوضات مع عضد الدولة البويهى لغرض استحصال اعترافه بالفاطميين ، وتبادل السفراء مع البويهيين سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م لكنها لم تفلح ، وقد ايد البويهيون العباسيين فى عدم الاعتراف باصل السلالة الفاطمية العلوى •

ولم يكن نصيب الحاكم الفاطمي أحسن من ذلك مع الحكام البويهيين سنة ٤٠٣ هـ ، ولا محاولات الظاهر سنة ٤١٥ هـ ، حتى ان الخلعة التى ارسلت الى بغداد احرقت ، لكن الظاهر لم يفقد الامل حيث ارسل اتباعه الى العاصمة العباسية سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م مستغلا اضطرابات الجند الاتراك فى عهد جلال الدولة البويهى ، فقام هؤلاء الرسل بدعاية واسعة وقوية للفاطميين هناك ، أما المستنصر الفاطمي منذ أقام علاقات ودية مع عدد من حكام الشرق وبلغ نشاط دعاته الى ارض السند ، وكان يعتقد انه بامكانه تحقيق وصول الحكم الفاطمى الى الشرق •

أما في العراق فقد استطاع الامير التركي البساسيري أن ينتزع الاعتراف بالسيادة الفاطمية فى مناطق متعددة كالموصل سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٩ م ، ويعود هذا التوسع الفاطمي بالدرجة الاولى للجهود المنظمة التي بذلها الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الذى استطاع أن يقنع أبا كاليجار البويهى فى شيراز باعتناق المذهب الاسماعيلى •

أما السلاجقة الذين يدينون بالمذهب السني فكانوا ضد الفاطميين ، ذلك ان طغرلبك السلجوقي أعلن سنة ٤٤٧هـ عن نيته في المسير نحو سوريا ومصر للقضاء على حكم المستنصر الفاطمي فيها ، ولقد لعبت مشكلة البساسيري دورا هاما في

تقوية تصميم السلاجقة لتوجيه انظارهم نحو سوريا والبحر المتوسط وخاصة بعد ان فشل البساسيري في الحصول على مساعدة الوزير الفاطمي اليازوري ، وتمكن السلاجقة بعد ذلك ان يستولوا على بعض املاك الفاطميين ، ففي مكة حذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة مبدأيا سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ، ونهائيا سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٨ م • كما طلب الامير ناصر الدولة الحمدانى اثناء غزوة على المستنصر الفاطمى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م مساعدة السلطان السلجوقي ألب ارسلان ، مقابل اعادة الخطبة للعباسيين ، وفي السنة التالية وصل السلاجقة حلب حيث اضطر أميرها المرداسي أن يحذف اسم الفاطميين من الخطبة ، ولم يتمكن ألب ارسلان السلجوقي التقدم أكثر من ذلك بسبب الغزو البيزنطى الذى قاده الامبرطور على شمال الشام ، لكن نفوذ السلاجقة امتد تجاه سوريا وفلسطين •

٥ ـ الفاطميون والصليبيون :

ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام فى الوقت الذى وصل فيه الصليبيون الى شمال سوريا ، ولم تبق فى أيديهم بفلسطين سوى عسقلان وبعض المدن الساحلية ، وكان الفاطميون اقل حماسة من امراء سوريا الاتراك للحرب ضد الفرنج ، وأكثر من ذلك فان الفاطميين الذين أفزعتهم قوة السلاجقة ورغبتهم فى احتلال مصر حاولوا التعاون مع الفرنج ضدهم ، وجرت الرسل والسفارات بين الفاطميين والفرنج ، وقبل الفرنج سفيرا فاطميا فى انطاكية فى بداية سنة ١٠٩٨ م ، واسلوا وفود مع السفراء المصريين الى القاهرة ، واتفق الفاطميون والفرنج على اقتسام بلاد الشام فيما بينهم على ان تكون فلسطين للفاطميين وسوريا للفرنج لكن ذلك الاتفاق لم ينته بشىء ، رغم ايمان الفرنج بصحة عداء الفاطميين للترك اثناء اعمال اليكسى كومنيوس فى بلاد الشام • اما الوزير الافضل الفاطمى فقد زحف نحو القدس واستولى عليها من سقمان فى آب سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م بعد

محاصرة دامت اربعين يوما ، واستمر فى تقدمه نحو بيروت ، لكنه من الصعب التحقق من الدوافع التى تقف وراء موقف الوزير الافضل فى عدم قيامه باية محاولة لمنع الصليبين من فتح القدس سنة ١٠٩٩ م ويسمح لنفسه ان يكون ضحية حرب خارج عسقلان فى الوقت الذى كان قد فتح فيه عدة مناطق بما فيها مدينة يافا ، واستطاع الصليبيون بعد ذلك ان يسيطروا على حيفا ـ ارسوف ، قيصرية ، عكا فى فلسطين سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤ م .

وقف الفاطميون ضد الصليبين لكنهم لم يفلحوا فى منع سقوط طرابلس بأيديهم التى استغاثت بهم فى نهاية سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ، ولم يفعلوا ، شيئا ازاء سقوط بيروت وصيدا سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ولا سقوط صور سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م بايدى الصليبين رغم الاتفاق المعقود بين الامير الفاطمى فى صيدا وامير دمشق ، وتقدم الفرنج فى نهاية سنة ٥١٧ هـ / ١١١٨م حتى الفرما ، لكنهم مع ذلك لم يفكروا بالتوجه نحو مصر ، ولم يستعدوا للهجوم على عسقلان الا بعد مضي وقت طويل وفى سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٠م دخل الوزير المصري ابن السلار فى مفاوضات مع أمير حلب نورالدين ، وقام الاسطول المصرى بحملة شديدة على الموانىء الفرنجية ، لكن الفرنج فتحوا عسقلان سنة ٥٤٨ هـ بعد حرب دامية مع الفاطميين ، قام بعدها الوزير طلائع بن رزيك ببعض الحملات العسكرية ضد الصليبين حقق فيها بعض الانتصارات قرب غزة والخليل سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م الا ان هذه الانتصارات لم تأت بنتائج كبيرة ، ذلك لان حليفهم نورالدين أمير دمشق لم يكن راغبا ابتداءً من سنة ٥٥٩هـ بالدخول فى حملات مع المصريين بسبب الاضطرابات الداخلية التى نشبت فى القاهرة بعد اغتيال طلائع بن رزيك بتدبير من الخليفة العاضد سنة ٥٥٦هـ وخلفه ابنه الذي لقي نفس المصير سنة ٥٥٨هـ ، ومن هذا التأريخ أصبحت علاقة

الفاطميين بمصر مع الصليبيين من جهة ، وعلاقتهم مع نورالدين بدمشق من جهة اخرى تتأثر بالتنافس القائم بين شاور الذى خلف طلائع بن رزيك وبين ضرغام ، ذلك لان شاور التجأ الى نورالدين بعد أن طرده ضرغام من مصر ، وعمل شاور على اقناع نورالدين بالتدخل فى شؤن مصر ، خاصة وان الملك امدرك الاول قام بأول غزوة داخل الاراضى المصرية سنة ١١٦١م حصل من جرائه على غرامة مالية من طلائع ، لكنه اضطر الى ترك مصر بعد الفيضانات المدبرة •

وبناء على ذلك أرسل نورالدين جيشا الى مصر بقيادة شيركو وحفيده صلاح‌الدين الايوبي ، وأثناء ذلك قتل ضرغام سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م وتولى شاور الوزارة وتمكن شيركو أن يطرد الفرنج من مصر سنة ٥٦٤هـ تلبية لطلب الخليفة الفاطمي وشاور ، ثم استطاع شيركو أن يتخلص من شاور باغتياله ، فتولى شيركو منصب الوزارة من الخليفة الفاطمي ، لكنه ما لبث أن مات ، فقام مكانه صلاح‌الدين الايوبي الذى استطاع اقتلاع جذور الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م معيدا بذلك المذهب السني والسيادة العباسية الى مصر •

٦ ـ السياسة الداخلية للفاطميين :

نظام الخلافة عند السنة يقوم بصورة عامة على الانتخاب أو التعيين الذي يقره نوع من الانتخاب الشكلي ، أما النظام عند الشيعة فالخليفة عندهم يقوم على حق النص الالهي ليكون وصياً للنبي اعتباراً من علي ، وان الامامة تنتقل من الاب الى الابن باستثناء حالة الحسن والحسين وذلك ضمن العائلة العلوية •

ولذلك لا وجوب للانتخاب ولا ضرورة لتوفر شروط النظام السني التي يجب توفرها لمن يشغل منصب الخلافة أو الامامة • انما الامام عند

الشيعة ينتخب بتعيين شخصي من سلفه بالنص الذي هو اقرار للارادة الالهية ، ولا يشترط أن يعين الابن الاكبر في الامامة ، كما حصل فى حالة اسماعيل بن جعفر الصادق وحالة تميم وعبدالله ابني المعز ، كما لا يشترط العمر فى تولي الامامة ، ولذلك لم تعترض خلفاء الفاطميين المشاكل حول الخلافة الا فى حالة المستعلي حيث بدأ الصراع والانقسام الذي أدى الى ظهور المستعلمية والنزارية ، وتبع ذلك ضعف الخلفاء الفاطميين ابتداء من حكم المستنصر الذي أصبح العوبة بأيدي الوزراء والحاشية ، واضطروه الى بيع أملاكه الخاصة لارضاء طلبات ناصرالدولة الحمداني وحراسه الاتراك الذين كانوا فى امرته •

ومنذ زمن المستعلي أصبح الوزراء هم الحكام الفعليون وينحى الخليفة عن السلطة بأمر الوزير عندها يلجأ الخلفاء لاغتيال وزرائهم فى الوقت المناسب ، فقد اغتال الامر وزيره الافضل ، تبع ذلك بمدة ضعف فى شرعية السيادة الفاطمية ، ولذلك جرت محاولات فى عهد المستنصر لاعادة السيادة العباسية ، وفى سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م خطب ناصرالدولة الحمداني بالاسكندرية للعباسيين ، كما أصبح ابن السلار وزيراً للحافظ وهو سني •

٧ ـ الوزارة عند الفاطميين :

لم يكن للحكم الفاطمي في شمال أفريقيا وزراء يحملون لقب وزير لكن مركز الوزارة أخذ يزداد أهمية وبصورة تدريجية بعد ذلك ، وخاصة عندما أصبحت مصر مركز الخلافة ، ويعتبر يعقوب بن كلس أول من منح لقب وزير من قبل الخليفة العزيز ، وابن كلس هو المنظم الاداري والمالي لاول خليفة فى مصر من الفاطميين •

وقد استغنى بعض الخلفاء فيما بعد عن مساعدة الوزير فى الحكم ، بينما كان للبعض الآخر وزراء لكنهم لم يمنحوا لقب ووظيفة وزير واقتصر

أمرهم على أن يكونوا وسطاء أو سفراء بين الخلفاء وبين موظفيهم ورعاياهم، وأحيانا اخرى كان لهم وزراء بهذا اللقب •

وعلى العموم فان الوزراء فى العصر الفاطمي الاول كانوا مجرد وكلاء ينفذون ارادة الخلفاء مهما تمتعوا به من سلطة وأثر على هؤلاء الخلفاء ، الا انه اعتبارا من الفترة الثانية من حكم المستنصر وكنتيجة لمعالجة وضع متدهور خطير استغاث المستنصر بقائد جنده فى سوريا بدر الجمالي ومنحه سلطات واسعة وفوضه ، فاستبد هذا الوزير لقوته العسكرية حتى سمي وزير السيف والقلم ، ومنذ هذا الوقت أصبح الوزراء سواء عينهم الخليفة أو اغتصبوها يتمتعون بسلطات كاملة دون الخلفاء وأصبحوا وزراء سيف ولم تقتصر سلطتهم على الجيش ومن هنا كان اسم الوزير أيضا أمير الجيش ، وهي وزارة التفويض • وصار الوزير رئيسا للادارة المدنية والقضائية والدينية ، وكانت من جملة القابه ، قاضي القضاة ، وداعي الدعاة فضلا عن الوزارة وتلقب بعضهم بالملك أحيانا ، ذلك ان لقب ملك انتقل من الوزير شيركو الى ابن أخيه صلاح الدين ومن ثم الى السلالة الايوبية كلها •

ومن الامور الجديرة بالاهتمام فى هذا المجال ان الفاطميين استوزروا عددا من النصارى منهم عيسى بن نسطورس وزير العزيز ، وابنه زرعة بن نسطورس الذى خلف وزيرا مسيحيا آخر هو منصور بن عبدون •

ومن الحالات الغريبة فى تأريخ الوزارة الفاطمية ان بهرام الارمني الاصل ا لذى تقلد الوزارة وتمتع بسلطات واسعة بقي نصرانيا ويلقب مع ذلك بسيف الاسلام • أما اليهود فلم يعينوا وزراء الا بعد تحولهم الى الدين الاسلامي ، ومنهم ابن كلس والتستري وابن الفلاح •

لكن مكانة الوزير فى الدولة الفاطمية تحيطها المخاطر الكثيرة ، ذلك

ان قتلهم ومصادرة أموالهم ، أو سجنهم امور طبيعية ، وكان ذلك ابتداء من سنة ٣٩٠هـ حيث اغتيل الوزير برجوان بناء على أمر صدر من الحاكم ، وأصاب ستة من خلفائه المصير نفسه منهم اليازوري الذي اغتاله المستنصر والفضل الذي اغتاله الآمر وغيرهم .

وهناك ظاهرة عامة اخرى فى نظام الوزارة فى العصر الفاطمي هي عدم توفر الثقة والامان بين الخلفاء ووزرائهم بدليل كثرة الوزراء الذين يستخدمهم الخليفة الواحد ، فالعزيز مثلا استخدم ثمانية وزراء فى عشرين عاما ، واستخدم الحاكم ثمانية وزراء فى (١٩) عاما ، بينما استخدم المستنصر خمس وزراء فى عامين فقط .

٨ ـ الاضطرابات الداخلية ضد الفاطميين :

نتيجة للضعف المستمر لقوة الخلفاء وأهميتهم ، فضلا عن ضعف مركز الوزارة انتشرت الفوضى ومرت الخلافة الفاطمية بفترات عصيبة نتيجة عوامل سياسية وعسكرية ودينية واقتصادية واجتماعية ، ومن تلك الاضطرابات ثورة ابن ركوة فى شمال أفريقيا وتأييده للامويين فى الاندلس فى خلافة الحاكم الفاطمي ، أما فى خلافة المستنصر فقد ادعى السكين انه الحاكم بعد أن قام بحركة دينية بعد وفاة الحاكم ، كما قام الخلاف بين نزار والمستعلي بعد وفاة والدهما المستنصر ، وعندما اغتيل الآمر على يد أحد اتباع النزارية ادعى البعض بأنه خلف ابنا له هو الطيب الذي يجب أن تؤول الخلافة له ، وانتهى الامر بذلك الى انشقاق جديد .

كما أدت طبيعة الجيش الفاطمي الخليط من البربر والسودان والاتراك والديلم (المشارقة) الى قيام حركات تمرد كثيرة اصبغت بالعنصرية ، ولا شك فان هذه العناصر بالجيش غير متجانسة ولا منسجمة مع بعضها ،ذلك انه فى بداية عهد الحاكم عندما حدث التنافس والصراع

بين ابن عمار الكتامي وبين برجوان التركي مال البربر فى الجيش الى جانب ، ومال الاتراك والسودان والديلم الى الجانب الآخر ، كما حدث نزاع مماثل بين العناصر التركية والسودانية ونشبت بينهما معارك دامية بين سنة ٤٥٤هـ - ٤٥٩هـ ، وقف البربر فيها الى جانب الاتراك ، واستطاع ناصر الدولة الذي كان يقود الاتراك أن ينتصر على السودان وينفرد بالسلطة من المستنصر الذي اضطر الى بيع أملاكه الخاصة لمجابهة طلبات جند الاتراك المتزايدة .

وكان للفوضى الاقتصادية والمجاعة العامة دور كبير فى قيام مثل هذه الاضطرابات المختلفة ، ولا شك فان كثيرا من عمليات السلب والنهب وانتشار الامراض العديدة كانت تصاحب هذه المجاعات والاضطرابات .

٩ - السياسة الدينية للفاطميين :

لم تكن العقيدة الاسماعيلية مقبولة لدى المسلمين بصورة عامة ، ومن ثم فقد حدث صراع طويل بينهما وبين العقيدة السنية التي يعتنقها باخلاص أكثرية السكان فى مصر وبلاد الشام والحجاز ، وان السنة بقيت تمارس فى هذه البلدان رغم وجود الحكم الفاطمي فيها ، بل كانت هناك ردود فعل قوية ضد الطقوس الشيعية ، ومع ذلك فان الدعاية الشيعية عملت من أجل تثبيت دعائم الفقه الفاطمي ، وحاول القاضي النعمان وابناؤه من بعده وكذلك الوزير ابن كلس تثبيت دعائم العقيدة الجديدة .

أما سياسة الفاطميين تجاه السنة فقد كانت متأرجحة ، حرمت أحيانا ممارسة العبادات على مذهب السنة بصورة علنية ، ومع ذلك فقد اتبع الفاطميون فى بعض الاحيان نوعا من سياسة التسامح واللين مع أهل السنة .

بينما تسامح الفاطميون تجاه النصارى واليهود طيلة عهدهم ذلك انهم استخدموا فى الوزارة عددا من النصارى واليهود ، كما أشغل أهل الذمة

المناصب الادارية والمالية الهامة طيلة حكمهم ، وكانت سياسة التسامح الديني مع اليهود والنصارى ظاهرة تميز بها الحكم الفاطمي بصورة عامة .

١٠ ـ تنظيم الدولة الفاطمية :

لم يبلغ نظام الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا درجة من النضج فى التنظيم رغم وجودها ، لكن الخلفاء الفاطميين حاول منذ عهد المعز والعزيز بمصر وضع اسس ثابتة قوية لسياسة الفاطميين ، فالتنظيم الدقيق الذى أدخل فى الادارة والشؤون المالية الذى أوجده جوهر بالتعاون مع ابن كلس وعسلوج صار الاساس لنظام معقد يضم مجموعة من المؤسسات التى تطورت وعدلت وحورت باستمرار خلال الفترات التالية لحكمهم .

أخذت الادارة الفاطمية بالمركزية الشديدة على رأسها الخليفة والوزير التنفيذي أو التفويض ، وكانت كافة امور الدولة تحت سيطرة الادارة المركزية ، ولم تكن الاقاليم التابعة لها تتمتع بحكم ذاتي رغم ان بعض الحكام حصلوا على سلطات محلية قوية ، وكانت الادارة تنظم بالدواوين التي تتركز أحيانا بيد الوزير كما حدث فى عهد الوزير ابن كلس والافضل ، وأحيانا اخرى تتركز بيد الخليفة .

أما الموظفون من مدنيين وعسكريين (أرباب القلم والسيف) الذين يعملون فى خدمة البلاط الخاص أو فى الخدمات العامة العسكرية والادارية والمالية والفقهية والدينية فقد رتبوا ترتيبا هرميا ، تختلف الواحدة عن الاخرى من حيث الرواتب والاشارات الخاصة بكل طبقة أو جماعة ومن حيث مجالسهم فى قصر الخليفة ومجلسه .

كما شغل بعض العسكريين مناصب مدنية مثل الوزير والحاجب الاكبر (اسفهسلار) وحامل مظلة الخليفة وحملة السيف والحاشية ،

وأشغل بعضهم وظائف خاصة كثيرة أعلاها رتبة وشرفا (المحنّك) الذي كان يتميز بعمامته الخاصة ، بينهم آمر البهو وحامل الاختام والرسائل والجماعة التي تقوم بوضع الخلعة على رأس الخليفة •

أما موظفوا الادارة المدنية فعلى رأسهم وزير القلم ورؤساء الدوائر المختلفة ، ومدير الخزينة العامة وبعض الموظفين الدينيين كقاضي القضاة وداعي الدعاة والمحتسب والقراء وموظفوا البلاط كالاطباء والشعراء ، ويقيم هؤلاء جميعا فى العاصمة ، ولهذه الوظائف مثيلاتها فى الولايات والاقاليم المحلية •

١١ ـ النشاط الاقتصادي للدولة الفاطمية :

هيأ الوضع الاقتصادي المزدهر فى شمال أفريقيا لعبيدالله المهدي الظروف لانشاء اسطول عربي وجيش قوي ، وانه رغم كثرة الاضطرابات والفتن فان الحكم الفاطمي فى مصر تمتع برخاء كبير ، وذلك بفضل الاستقرار الاداري والتنظيم المالي ، والواردات الكثيرة من الضرائب بالاضافة الى الجزية والخراج ، فضلا عن مدخولات مخازن الدولة الخاصة وضرائب المكوس والتجارة والذهب المنهمر على الدولة من بلاد التوبى •

أما الصناعة فى العصر الفاطمي فهي الاخرى ازدهرت كثيرا وخاصة صناعة النسيج التي تعتمد على زراعة الكتان التي كثرت فى منطقة تنيس ودمياط ودبيق •

قائمة المراجع : ـ

الى جانب كتب المؤرخين العرب الذين ذكرهم محمد عبدالله فى كتابه مصر الاسلامية ـ القاهرة سنة ١٩٣١ وما ذكره حسن ابراهيم حسن ، أضف المراجع التالية : ابن ظافر ، مخطوطة فى المتحف البريطاني برقم

(or) ٥٨٦٣ ، ورقة ٤١ فما بعد ، وحوليات بن الدواداري ـ الفاطميون ـ تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة سنة ١٩٦١ ، وبرنارد لويس ـ مقالة في مجلة كلية الدراسات الشرقية والافريقية العدد ٢٦ لسنة ١٩٦٣ ص ٤٢٩ ـ ٤٣١ ، ولسبط بن الجوزي مخطوطة بباريس رقم ٥٨٦٦ سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م فما بعد ، ومصادر متعددة في مقدمة كتاب الخلفاء الفاطميون لويستفلد ، وكتاب الاسلام والمسلمون لـ CH. Becker وأجزاء من مخطوطة المسبحي Cl. Cahen عن الفاطميين وعلاقاتهم في مجلة de. l'ifao العدد ٣٠ـ٣٧ سنة ١٩٣٧ ، ومجموعة اخرى استعملت من قبل ابن الفرات لها أهمية كبيرة جلبت الانتباه مثل ابن أبي الطايع الشيعي حوليات في شمال أفريقيا لابي زكريا ترجمت الى الفرنسية حديثا من قبل R. Leturneau ومقالة عن النقود الفاطمية لـ R. Idris في مجلة Revue, Africaine سنة ١٩٦٠/١٩٦١ ، بالاضافة الى كتلوك النقود الاساسي وكتاب علم النميات ، انظر مقالة في مجلة J. A العدد ١٥ سنة ١٨٨٠ والعدد ١٩ سنة ١٨٨٢ للكاتب H. Sauvaire ومقالة اخرى في مجلة RT, العدد ٢٧ ـ ٢٨ سنة ١٩٣٦ والعدد ٢٩ سنة ١٩٣٧ لكاتبها M. Thoussel, J. Farrugia في مقالته بمجلة Ree العدد ١٥ سنة ١٩٤٢ ، و G. CM. les في كتابه النقود الفاطمية في مجموعة متحف فيلاديلفيا والجمعية الامريكية للنميات بنيويورك العدد ٢ سنة ١٩٥١ ، و A. S. Ehrenkreut في مقالة دراسات في التأريخ الاقتصادي للشرق الادنى في العصور الوسطى ـ في مجلة J. Esho سنة ١٩٥٩ ، سنة ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، ولنفس المؤلف أيضا مشاركة في تأريخ مصر الاقتصادي في العصور الوسطى في مجلة كلية الدراسات الشرقية والافريقية العدد ١٦ سنة ١٩٥٤ اضافة الى المصادر التي أشير اليها في المقالة نفسها ، وكتاب هدسن ـ نظام الحشاشين ـ سنة ١٩٥٥ ، وكتاب Sm. stern ثلاث التماسات

الفترة الفاطمية فى مجلة Oriens سنة ١٩٦٢ ص ١٧٢ ـ ٢٠٩ ومقالته ـ مرسوم فاطمي ـ سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م فى مجلة كلية الدراسات الشرقية والافريقية سنة ١٩٦٠ ص ٤٢٩ فما بعد ، و P. Labib ' A. Grohamnm, فى مقالتهما عن الفاطميين فى مجلة Rso. سنة ١٩٥٧ ص ٦٤١ فما بعد ، G. Levi, dellavid'a فى مقالته ـ عقد زواج ـ على رق مصري فى العهد الفاطمي فى مجلة اسرائيلية العدد ١٢ سنة ١٩٦٣ ، وعن الاستعراض العام لتأريخ الدولة الفاطمية ، بالاضافة الى كتب لينبول تأريخ مصر فى العصور الوسطى لندن سنة ١٩١٤ ، والاسر الحاكمة الاسلامية لندن سنة ١٨٩٤ ، وويستفلد ودى لاسى اوليرى فى كتابهما تأريخ مختصر الخلافة الفاطمية لندن سنة ١٩٢٣ ، بالاضافة الى هؤلاء جميعا انظر كتاب G. Wiet موجز تأريخ مصر وتأريخ الشعب المصري لمصر العربية المذكور أعلاه .

خاشع المعاضيدي
بغداد/العراق